الشخصية المسيحية في الرواية العراقية الصادرة من ٢٠٠٣ الى ٢٠١٥

م.م طارق جميل صكبان

ملخص البحث :

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على الشخصية المسيحية في الرواية العراقية الصادرة بعد عام ٢٠٠٣ ودورها في دينامية السرد ،وتطور الحدث الروائي بعد أن اعطته الشخصية المسيحية مرونة في تطور الاحداث وتوسع رقعة المكان الروائي ، مما أعطى الرواية العراقية فضاءً واسعاً. وقد انقسم البحث على مبحثين تسبقهما مقدمة وتتبعهما خاتمة ، كان الأول منهما معنياً بالشخصية المسيحية لدى الكتاب غير المسيحيين ،وخصصت المبحث الثاني للشخصية المسيحية لدى الكتاب المسيحيين .

Abstract

The research aims to shed light on the Christian personality in the Iraq novel published after 2003 and its role in the dynamic narrative and the development of the novel after the Christian personality gave him flexibility in the development of events and the expansion of the place of fiction. The research was divided into two chapters preceded by an introduction and followed by a conclusion the first of which concerned the Christian character of the nondenominational writers . The second topic is dedicated to the Christian personality among Christian novelists.

المقدمة :

لم تكن فكرة هذا البحث ناتجة عن مصادفة محضة ، أو أفكار عشوائية ؛ بل كان لها مقدمات مسبقة ، جعلتني أطيل التأمل والتفكير كي أخرج بهذا البحث ، فالمكون المسيحي مكون أصيل في هذا البلد ، ساهم في بناء حضارته ، ونشر ثقافته ، ولأهميته الكبيرة ، ولدوره الواضح في المجتمع ، سلطت الرواية العراقية عليه الضوء ، بصورة مكثفة ، وحشدت الجهود لحمايته والحفاظ على هويته التي بدأت بالضياع شيئاً فشيئاً تحت وطأة مطرقة الاحتقان الديني والطائفي والقومي ، ولهذا وجدنا الشخصية المسيحية تشكل ظاهرة لافتة للنظر في أغلب الروايات العراقية التي صدرت بعد عام ٢٠٠٣ . و قبل الولوج في البحث ، لا بدّ من توضيح بعض الأمور المتعلقة به ، ومنها ، أننا نقصد بالشخصية المسيحية :

أولاً. إنها شخصية روائية ، أي أحد أركان الرواية المتمثلة: بالمكان ، والزمان ، والحدث ، والشخصية .

ثانياً. أما كونها شخصية مسيحية ، فهذا يعني أنها ذات هوية معينة ، تتبرقع وراء إيديولوجية دينية مستقلة ، وهي الإيديولوجية المسيحية .

ثالثاً. يجب أن نعرف أنّ هذه الشخصيات المسيحية؛ هي شخصيات عراقية . وقد شكلت ظاهرة معينة قد رصدناها في الرواية العراقية الصادرة بعد عام ٢٠٠٣ .أننا لو سلخنا عنها هويتها المسيحية ؛ لاختل العمل الروائي ولم يتمكن من ديمومة السرد في هذه الروايات . فهذه الشخصيات لو افترضنا جدلاً استبدالها بشخصيات أخرى ، تنتمي إلى هويات دينية مغايرة ؛ لرأينا اختلال الفضاء السردي في هذه الروايات؛ وذلك لما ينعكس في وصف الأحداث والأمكنة ، وطبيعة الحوار .

إنّ أهم دافع لهذا البحث ، هو رصدنا لوجود ظاهرة طرأت على الرواية العراقية الصادرة بعد عام ٢٠٠٣ ؛ وهي كثرة ظهور الشخصيات المسيحية على سطح هذه الروايات . أو لنقل إنّ الرواية العراقية أخذت تسلط الضوء على الشخصيات المسيحية واشراكها في العمل الروائي بصورة فاعلة . ومن المؤكد إنّ للرواية العراقية أسبابها الموضوعية التي جعلتها تشكل هذه الظاهرة ، بوصفها المرآة العاكسة للمجتمع .

ولا بد لنا من توطئة تمكن القارئ من التعرف على أهمية المكون المسيحي في المجتمع العراقي والبعد التاريخي له، وما الظروف والملابسات التي جعلته ظاهرة تتبلور في الكثير من شخصيات الرواية .

ربما كان لأزمة الهوية التي يعيشها العراق أثر كبير في هذا الموضوع . فالمسيحيون العراقيون ، جعلتهم الظروف التاريخية ، والمتغيرات المجتمعية والديمغرافية ، والأزمات السياسية ، يعيشون ازمةً في الهوية ، واثبات الوجود في بلدٍ مضطرب تاريخياً ، ومأزوم سياسياً وأيديولوجيا كالعراق . فاذا أتينا إلى التصنيف القومي والعرقي لهم ، لوجدناهم يتكونون من ثلاث قوميات رئيسة ، تضرب جذورها بعيداً في تاريخ العراق . حيث تصنف أعراقهم وقوميّاتهم ؛ انها من اعرق القوميات في بلاد الرافدين .

إنّ أهم القوميات المسيحية في العراق هي : الآشورية ، والكلدانية ، والسريانية . فالكلدانيون (هم سكان بلاد النهرين الأصليون ، حيث يرجع الكلدان أصولهم إلى البابليين الكلديين الذين ينتمون إلى إحدى القبائل الآرامية)[١]، أما الآشوريون فهم (منحدرون من الانتماء إلى الملك الآشوري، آشور بانيبال)[٢]، وكلنا يعرف من هو آشور بانيبال ، أشهر أباطرة بلاد الرافدين . والسريان ؛هم آراميو ما بين النهرين ومن جاورهم من الشعوب القديمة في غضون المائة الأولى للميلاد ، وبعد أن دخلوا في الديانة المسيحية (تركوا اسمهم القديم وأسموا نفسهم (سريانا) تمييزاً لهم من الوثنيين وقد استحسنوا هذه التسمية لأن الديانة المسيحية جاءتهم من سورية وكلمة (سوريا) الآرامية معناها نصراني)[٣]، وهذا يبين أنهم من سكان العراق الأصليين أيضاً .

هذه اللمحة التاريخية ؛ تبين لنا أصالة المكون المسيحي في العراق ، وقد بدأت هويتهم بالاضطراب بعد دخول المسلمين إلى العراق ، حيث أنهم سكنوا بلاد النهرين قبل هجرة العرب إليها من شبه الجزيرة العربية ، وسخرية القدر جعلتهم يسمون بالأقليات في عصرنا الحديث هذا ، بعد أن كانوا هم من بنى حضارة وتاريخ العراق . أما اذا قفزنا إلى عصرنا الحديث ، لوجدناهم قد تعرضوا إلى مذابح كبيرة ، وأعمال عنف طالت كنائسهم وصلواتهم ، واستهدافهم بصورة مباشرة . هذا ما جعلهم في حالة هجرة شبه جماعية إلى خارج الوطن .

وهنا يأتي دور الرواية لرصد كل هذه المتغيرات الخطيرة التي انسحبت بصورة مباشرة على مكون رئيس من مكونات العراق . وشعرت باهتزاز جذورهم ، واضطراب هويتهم الوطنية ، أو ربما محاولةً منها في تحشيد الطاقات ، للحفاظ على أرث وهوية المسيحيين في العراق ، ومنحهم الشعور المفعم بالمواطنة وحق العيش والبقاء في أرض الأجداد .

ولنعود إلى محور البحث ، وهو الشخصية المسيحية في الرواية العراقية . ونحن نعرف إنّ الشخصية هي عنصر رئيس من عناصر أي رواية ، فلا توجد رواية بدون شخصيات ، (فهي التي تخلق الأحداث ، وتحركها وتنفعل بها)[٤] ، ومن خلال توظيف الكاتب لها يمكننا الاطلاع على الكثير من الأسرار والخفايا كما يقول فوستر فمن خلالها يمكننا أن نعرف الفرق بين الإنسان العادي والإنسان في الرواية ، فالأخير يضاف إلى تكوينه شيء هو حساسية الروائي التي تتيح لنا ، كقراء ، معرفة حياة الشخوص الخفية وأسرارها ، تلك التي نجهلها في علاقاتنا مع اصدقائنا ومع الناس الذين نعرفهم.[٥] وهذا ما قامت به الرواية حينما سلطت الضوء على تلك الشخصيات المسيحية ، وجعلتها شخصيات محورية ، فمن خلالها جلعت القارئ يعرف من هم المسيحيين في العراق وكيف يعيشون حياتهم الداخلية ، والتعبير عن تطلعاتهم ، الأمر الذي جعل الروائيين العراقيين ، يحملون رسائل مشفرة يريدون ايصالها إلى المتلقي من خلال رواياتهم ، وربما كانت هذه الرسائل ذات دلالات عدّة لا يمكن حصرها بزاوية واحدة . وهذا ما سنعود إليه لاحقاً ، بمحاولة فك هذه الرموز والرسائل المشفرة .

لقد تسامت الرواية العراقية ، باختيارها الشخصيات المسيحية ، لجعلها تصل إلى حد النموذج ، وهذا ايضاً نابع من الرسائل المبطنة التي حملتها تلك الشخصيات ، مما جعلها تشكل ظاهرة غلبت على الكثير من الروايات العراقية بعد عام ٢٠٠٣ . وهذا ما جعل الراوية تتفاعل بصورة دينامية ؛ بين النص والسوسيولوجية ، أي تكوين علاقات متآصرة بصورة سسيونصية . فالرواية ، من اكثر الاجناس الادبية تعبيراً لصورة المجتمع ، وهي انعكاسٌ طبيعي له .

ولقد وجدنا في الرواية العراقية التي تناولت الشخصية المسيحية ،التي كتبت من لدن كتاب عراقيين غير مسيحيين ، وكذلك التي كتبها كتاب مسيحيين ، أنّهم استخدموا اللغة المغايرة ، واقصد بها (اللغة السريانية) هنا ، أمثال : أحمد سعداوي ، وعلي بدر ، وسنان أنطوان ، وسعدي المالح . ولهذا استعنت في ترجمة هذه النصوص السريانية ، بمعلمة اللغة السريانية ، في تربية الكرخ الثانية ، الأستاذة الفاضلة : بان إنويا يونان ، التي لم تبخل عليّ بعلمها وثقافتها الآشورية السريانية ، ولهذا أقدم جزيل شكري لها وفائق امتناني ، لما منحتني من وقتها الثمين ، وحرصها في الوقوف على أدق التفاصيل واخراجها بالمعنى اللائق ، وترجمتها ترجمة أدبية ، فجزاها الله خير جزاء المحسنين .

وقد انقسم البحث على مبحثين المبحث الأول هو ؛ الشخصية المسيحية لدى الروائيين غير المسيحيين ،وقد تناولنا فيه اهم الروائيين الذين تناولوا الشخصية المسيحية في رواياتهم ، واهمهم أحمد سعداوي ،وعلي بدر ،وميسلون هادي . أما المبحث الثاني فهو ؛الشخصية المسيحية لدى الروائيين المسيحيين ، واهمهم صومائيل شمعون ، وسعدي المالح ، وأنعام كجه جي ، وسنان انطوان .

المبحث الأول : الشخصية المسيحية لدى الروائيين غير المسيحيين :

سوف أبدأ بتناول هذه الشخصيات المسيحية من رواية (فرانكشتاين في بغداد) لأحمد سعداوي ؛لكونها حازت على جائزة البوكر.حيث يبدأ الفصل الأول والكلمات الأولى له بالحديث عن شخصية (أيليشوا أم دانيال) وهي امرأة مسيحية آشورية تنتمي لكنيسة (مار عوديشو) قرب الجامعة التكنولوجية في بغداد . تفقد هذه المرأة ابنها الوحيد (دانيال) في الحرب العراقية الإيرانية . لكنها لم تقتنع بأنّ ابنها قد قتل في الحرب وان الجثة التي جيء بها ليست له . تواظب هذه العجوز المسيحية على الصلاة كل احد في الكنيسة الآشورية . وغالبا ما يتكلف بإيصالها إلى البيت الشماس العجوز (نادر شموني) بسيارته الفولكا . تعيش هذه العجوز الآثورية وحيدة في بيتها الكائن في زقاق ٧ بمنطقة البتاوين بعد وفاة زوجها (تيداروس) وهجرة بناتها (ماتيلدا) و (هيلدا) إلى الخارج مع ازواجهم . في الغالب تتلقى اتصالات من بناتها في الكنيسة على هاتف الأب يوشيّا (بعد القداس في كنيسة مار عوديشو. ستسمع اصوات بناتها وأولادهن عبر الهاتف ... في العادة ينتظر الأب يوشيّا رنين هاتفه المحمول ليخبرها بأن ماتيلدا تتصل ، أو ربما تنتظر ساعة أخرى بعد فوات موعد المكالمة لتطلب من الأب أن يتصل برقم ماتيلدا بنفسه . هذا ما يتكرر كل أحد)[٦]. هذه العجوز دائما ما تجلس امام صورة القديس (مار كوركيس) تتكلم معه وتطلب منه أن يعيد لها ابنها الوحيد دانيال . هذه المرأة المسيحية التي تواظب على الصلاة كل احد ، جعلت نساء الزقاق الذي تعيش به يعتقدن اعتقاداً مطلق بأنها مرأة مباركة وإنّ الله يدفع الخطر والتفجيرات الارهابية عنهم بسبب وجودها قربهم . أما شخصية (الشسمه) وهو بطل الرواية ذلك المسخ الذي تكون من اشلاء الضحايا وحمل على عاتقه الآخذ بثأر كل الضحايا ، فقد اختار بيت هذه العجوز (إيليشوا أم دانيال) مقراً له . وهنا نأتي لنحلل دور هذه الشخصية المسيحية في الرواية ، والبعد الفني الذي أضفته عليها ، مما ادى إلى انفتاح أفق النص ، واتساع دائرة السرد . فإيليشوا هي مرأة عراقية بغض النظر عن طبيعة الدين الذي تعتنقه ، وعرقها الآثوري الذي تنتمي إليه . فقد شاركت غيرها من الأمهات العراقيات اللّواتي ثكلن بأبنائهن من أثر الحروب ؛ لأنها فقدت ابنها ايضاً في الحرب العراقية الإيرانية . وكذلك عانت كغيرها من لوعة فراق الأهل والأبناء . فبناتها قد هاجرن إلى خارج العراق بس الظروف التي تحيط بالبلد ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر قد برع الكاتب في توظيف هذه الشخصية لإيصال رسائل عدّة إلى المتلقين ، فمن خلال (إيليشوا) يؤكد الكاتب على اصالة المكون المسيحي في العراق ، وتشبثه بجذوره العراقية . وهذا واضح من اسلوب الحوار حينما تحاول بناتها اقناعها إلى الهجرة خارج العراق ، ورفض (إيليشوا) القاطع لهذا الشيء (في تلك الفترة كانتا تتصلان على هاتف الثريا في كنيسة مارعوديشوا كل أحد ، وكان الأب يوشيّا يتبرع بطمأنتهما في حال لم تحضر العجوز لسبب من الأسباب ... وقد تنشب معركة بين العجوز واحدى بنتيها في منتصف هذه الدقيقة وتصل إلى الذروة مع انقطاع الاتصال ، أو سحب الأب يوشيّا للهاتف من يد العجوز . كانتا تريدان العودة إلى بغداد لحمل امهما بالقوة)[٧] . وكذلك من خلالها استطاع الكاتب أن يلج بالمتلقي إلى الحياة الخاصة التي يعيشها المسيحيون ، بالنسبة لمن يجهل طقوسهم الخاصة ، وكذلك التعرف إلى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية التي غالبا ما تكون مجهولة للأغلبية من الذين لم يعاشروهم بسبب الطبيعة الديمغرافية التي يعيشون بها .

فمثلا نجد إن العجوز (إيليشوا) كثيراً ما كانت تناجي صورة القديس مار كوركيس الشهيد وتطلب منه أن يعيد لها ابنها ، وبعد ان احست ذات يوم بأنه وعدها أن يلبي طلبها ، وفي تلك اللحظة التي اخذ فيها (الشسمه) شخصية ولدها (دانيال) وجاء لينام في بيتها ، واحست إنّ ابنها قد عاد لها بعد فراق طويل ، كان واجب عليها أن توفي النذور التي التزمت بها ، وقامت بإعداد أكلة (الكشكا)وهي اكلة يصنعا المسيحيون في الآحاد وفي المناسبات [٨] . (لقد أنشغلت إيليشوا بصنع (الكشكا) . وضعت الحنطة المقشرة مع البرغل المسلوق ، واضافت الحمص والمتبلات ، مع قطع مكعبة من اللحم . إنها ماهرة في صنع الاطباق التقليدية ، وهي في الأحوال العادية ، لا تملك مناسبة لذلك ... لكن الأمر هذا اليوم مختلف إنها تكرّم ضيفاً خاصاً وتفي بنذر قديم . تسوط العجوز القدر وتردد مع نفسا :

_ نعمةٌ وسلامٌ من الله ابينا والرب يسوع المسيح الذي أحبنا قبل أن نحبه)[٩]

وكذلك نجد العجوز ايليشوا تنزع عصابة الترمل والحزن وتستبدلها بأخرى للفرح وهي عصابة (الكونكثا)[١٠]، (كانت تضع عصابة كونكثا حمراء بزهور بيضاء وكأنها فتاة صغيرة . لقد نزعت عصابة الترمّل والحزن)[١١]. فعند متابعتنا لشخصية ايليشوا ، نجدها قد اعطت إلى السرد في الرواية طاقة متجددة ، فزادت من دينامية الحوار ، واعطت إلى الراوية شخصيات مسيحية اخرى ثانوية ، كشخصية الشماس نادر ، والأب يوشيّا ، وبناتها ؛ هيلدا وماتيلدا ، وعائلة نينوس ملكو التي سكنت معها في ايام الحصار الاقتصادي .

أما الرواية الثانية فهي من أهم الروايات العراقية التي تتحرك شخصياتها داخل فضاء المجتمع المسيحي ، وهي رواية (الطريق إلى تل المطران) للروائي علي بدر ، حيث يذهب الشخص الذي يسرد الرواية ، وهو مسلم من بغداد ، إلى مدينة مسيحية ذات أغلبية آشورية ، اسمها (تل المطران) ، وذلك للعمل كمدرس يدرس اللغة العربية لأبناء هذه المدينة.

يبدأ زمان السرد ؛ بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ، ليجد هذا المثقف البغدادي نفسه في حالة ضياع ، وتشتت فكري ، وكذلك اضطراب وتذبذب من أجل الحصول على عمل ، حيث تقوم صديقته المسيحية الكلدانية (ليليان سركيس) بإيجاد فرصة عمل له بين الحين والآخر ؛ لكنه يتركه لسبب ولآخر ، هذا قبل رحلة الذهاب إلى (تل المطران).

بعد أن يصل بطل الرواية إلى هذه المدينة المسيحية ، ذات الأغلبية الآشورية ، يجد نفسه أمام مجتمع آشوري منغلق تماماً على نفسه ، ولا يتلكم غير اللغة السريانية ، مجتمع يرتعب من الغرباء ، ويخضع هذا المجتمع تحت سلطة رجل دين غريب الأطوار يدعى (القاشا خوشابا) أي القس خوشابا ، أما هذا (القاشا) فإنه يؤمن بآيديولوجية سريالية مرعبة ، نابعة من جذور ثقافته الشعرية والفنية السريالية ؛ كونه شاعر وممثل سابق.

يجد السارد نفسه ؛ مقحماً في نبوءة مسيحية قالها أحد الأكراد ، لتتحول إلى صراع بين (القاشا) الذي يمثل السلطة الدينية القديمة ، وبين شميران ، المرأة المتنفذة في الكنيسة والمدينة ، والتي تبحث عن كنز مدفون في قصر جدها ، ولا يمكن لأحدٍ مساعدتها في استخراج الكنز غير ذلك المعلم المسلم القادم من بغداد ، لأن النبوءة تقول ذلك .

فإذا نتابع أحداث الرواية ، نجد أن دينامية السرد لا تتحرك إلا من خلال الفضاء البطرياكي الكنسي ، مما أضفى على الشخصيات المسيحية ؛ طابع الفاعلية والحركة التي تمد حركة السرد ، من خلال ترابطه الداخلي بين الشخصيات والأحداث ، فالسارد يبدأ زمن سرده لأحداث الرواية بمرافقة صديقته (ليليان سركيس) ، صعوداً إلى أحداث الرواية لذروتها من خلال مدينة (تل المطران) ، ذات الشخصيات المسيحية بالكامل ، ابتداءً من شخصية (القاشا) ، و (شميران) التي تقيم علاقة جنسية مع البطل ، تنتهي بفض بكارتها ؛ من أجل تحقيق مآربها ، وكذلك شخصية (جولي) الخادة في بيعة (القاشا) والتي تحاول دائما أغراء السارد . وكذلك شخصية (إيلين زومايا) التي يعشقها أغلب رجال المدينة ، ويتصارعون من أجلها ، كالصراع الذي نشب بين (أمين) خال شميران ، و(وردة) في داخل الحانة ليتدخل البطل في حل هذا الصراع ، وشخصية (يوسف) الذي تعلم السحر والشعوذة في منطقة (الشيخان) من أجل الانتقام من (إيلين زومايا) التي يعتبرها خانته ، وتزوجت من أخيه (زيا) الذي يقوم في الأخير بقتلها بس الشكوك التي كانت تدار حولها اثناء المدة التي قضاها في السجن ، والاعتراف الذي قامت به (ايلين زومايا) للمعلم الغريب بانها انسانه بريئة ولا احدُ يصدقها . وكذلك شخصية (ادورد) الحلاق ، وهي شخصية منصهرة بالثقافة الغربية ، بسبب اختلاطه بالسياح الأجانب الذين يفدون إلى المدينة كل عام ، فيكتشف السارد لاحقا أن (ادورد) هو اخ ل (وردة) وقد قطع علاقته به بسبب دخول الأخير للسجن بتهمة العمالة لصالح روسيا ، لأنه اصطاد طيرا غريب وجد في رجله رسالة تحمل عنوان لعلماء روس ، ارسلوا له لاحقا بعد أن راسلهم ؛ بندقية وبدلة للصيد .

فمدينة (تل المطران) بما فيها من انغلاق ، وتعصب ديني ، وقومي ، ومذهبي ، يجعلها الروائي رمزاً للعراق ، حتى وأن نكتشف لاحقاً ؛ إنها مدينة خيالية ، وإنّ الرحلة لم تكنْ إلا حلماً ، ولكن نجد السارد يذهب إلى الموصل على أثر هذا الحلم ، هو وصديقته (ليليان سركيس) ويبحث هناك عن هذه المدينة الخيالية ، فيدله سائق السيارة عن فندق يحمل اسم (تل المطران) ، ليتحدث له احد نزلاء الفندق بأنّ هناك قرية كانت تحمل هذا الاسم ، في ناحية (القوش) وبالقرب من دير (الربان هرمز) في زمن الاحتلال الانكليزي ، وانها اندثرت آثارها ، ليدله صاحب الفندق على قس القوشي يسكن قريب من الفندق ، فيذهب هو و (ليليان سركيس) فيلتقيان به ليجد هناك شبها بينه وبين شخصية (القاشا) التي رآها في المنام ، ويعود أخيرا هو و(ليليان سركيس) إلى فندق (تل المطران) ليمارس الجنس معها أول مرة وفي هذا الفندق بالتحديد .

لقد استطاع (علي بدر) من خلال هذه الرحلة الخيالية ، إلى تلك المدينة المسيحية ذات الأغلبية الآشورية ؛ أن يسلط الضوء ،على طبيعة المجتمع المسيحي في العراق ،وإلى ثقافته ، وتطلعاته ،وطريقة تعامله من الآخر.وكذلك استطاع أن ينقل المتلقي بصورة فنية وبوساطة شخصيات الرواية ، إلى كل ما يدور في هذه المجتمعات التي تحمل طابع الاثنية الدينية ، والتعصب الديني والقومي .

وكذلك وجدنا الروائي يوظف ما نسميه باللغة المغايرة ، التي تستخدمها هذه الشخصيات المسيحية في مجتمعاتهم ، من خلال اسلوب الحوار ، لدى هذه الشخصيات . فنجد السارد اثناء تحرك الأحداث ؛ يتعلم اللغة السريانية سريعا ، مما يدهش اللذين حوله ، فمثلاً حينما يقوم البطل بسؤال (القاشا) – وكلمة قاشا تعني القس في اللغة السريانية* – لماذا ارتعبت المدينة منها حينما دخل اليها أول مرة ... فيجيبه (القاشا) ؛ (لأنك نخرايا ..)[١٢] وكلمة (نخرايا) تعني (الغريب) في اللغة السريانية . وكذلك عندما يدخل البطل مع شميران في اليوم الأول لتوليه مهمة تدريس الأطفال للغة العربية إلى قاعة الكنيسة تقول شميران إلى الطلبة : (قدمختون برختا) أي : صباح الخير ، (وحينما يرن جرس القاعة معلناً انتهاء الدرس يقف الطلاب صفاً واحداً لتحيتنا : بُش بشلامه)[١٣] وتعني : مع السلامة . وكذلك نجد أهل المدينة كلهم ينادون البطل بـ(رابي) والتي تعني : معلم أو أستاذ . وكذلك حينما يشكر البطل شميران فإنه يقول لها : (بسيما رابه) أي شكرا جزيلا ، فتجيبه (لي ديقرا رابي)[١٤] ، أي : لا شكر على واجب يا معلم . أو حينما يدخل البطل على (القاشا) مساءً ؛ فإنه يحيه : (رمشوخون طاوة قاشا)[١٥] أي مساء الخير ، وكذلك نجد البطل يحيي شميران دائما بالسريانية حينما يراها فيقول : (دخيوت شميران) أي : كيف حالك ، فتجيبه ، (بشينا .. بشينا رابي)[١٦] أي : أهلا أهلا استاذ .. فهذه اللغة المغايرة التي وظفها الروائي بأسلوب فني ، من خلال لغة الحوار التي تقوم به الشخصيات المسيحية داخل الرواية ، ساهمت في توسيع أفق السرد ، وإعطاءه مرونة تزيد من دينامية السرد وحركته بشكل إيجابي ، فهي لم تكن مقحمةً إقحاماً قسرياً ، بل جاءت بشكل عفوي ، لتعكس لنا صورا مستوحاة من واقع المجتمع المسيحي في العراق .

ولعل من اشهر الروائيات العراقيات اللواتي وظفت الشخصيات المسيحية في رواياتها ؛ هي الروائية (ميسلون هادي) ، حيث تمتاز هذه الروائية بانتقاء شخصيات رواياتها ، لتجعل منها رمزاً يمثل شتات الوطن ، و يشتركون بهمومه ومأساته ، مؤديةً رسالتها ككاتبة تحمل هموم وطنها ، ولملمت ما تبقى ؛ إيماناً منها بأنّ الأديب يجب أن يحمل رسالة اتجاه وطنه ، وأن يكون له موقفاً له ؛ تحت غيوم المأساة التي تحل به ، ففي روايتها (شاي العروس)، يذهب بطل الرواية (محمود) بعد أن يرجع له بصره ، باحثاً عن استاذه المسيحي (ألبير) الذي كان يعلمه الموسيقى عندما كان أعمى ، لتجعل الروائية من هذه الشخصية رمزاً يتألق بالمحبة والسلام ويعلم الفن والجمال . فحينما يبصر (محمود) النور ، يتوجه إلى أحد الأديرة في بغداد لعله يجد فيها (ألبير) أو يجد من يدله إلى طريقه ، وقبل دخوله إلى الدير ، يجد طفلاً مسيحياً يلعب بطائرته الورقية اسمه (فادي) ، يساعده (محمود) في جعل الطائرة الورقية تطير ، ومن ثم يدخل (الدير الهادئ بشكل غير مألوف ، مر رجل دين يرتدي قفطاناً أسود بأزرار وردية وحزام وردي ، ويعتمر طاقية وردية غامقة اللون . ابتسم الرجل لمحمود ، ولم يكن قد رأى أحداً غريباً يفعل ذلك معه من قبل . ثم توقف عند بعض الراهبات وهن يبذرن البذور في تراب محفور في الحديقة)[١٧] ، ينصهر البطل بأنغام جوقة الكنيسة ، حينما يرنمون تراتيلهم ، التي تتغنى بحب يسوع الفادي ، فاتخذنا الروائية بعيداً عبر شخصياتها المسيحية إلى عالم يعزف ألحان الحب والسلام ، فتذكر العديد من مقطوعات هذه التراتيل ؛ فحينما تدعوا أحدى الراهبات (محمود) ((ثم تقدمت من محمود وقالت : تفضل إلى القدس . دلف من باب كبيرة مرسوم عليها الصليب إلى الداخل وجلس على واحد من مقاعد خشبية مديدة ونظيفة تتقدمها ظهور محفوظة فيها كتب صغيرة مرقومة بالجلد ، ووجد أطفالاً بمسوح الرهبان يرددون ترتيلات :

كنتُ في الظلام
أطلب الســــــــلام
والآن ها قد أتيت إلى سيدي رب السلام
يا يسوع يا حبيب
قد تركت السماء من أجلي
كي تكون لي نوراً لقلبي
يا عجباً

من أجلي جئت يا رب يا يسوع
يا عجباً
مخلصي قد مات من أجلي
وسفك الدم الزكي فدا لخاطئٍ مثلي
أحبني ربي ، نعم أحبني
يسوع قد أحبني
لذا مات عني)[١٨] ، ففي هذه الأجواء الروحية يجد (محمود) أرضية مشتركة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية ، ويقارن الموسيقى المعزوفة بأغاني فيروز ، وينصت بخشوع إلى الموعظة التي يلقيها القس ، ليجد أن كل الديانات تدعو إلى حب الإنسان لأخيه الإنسان ، ويشعر البطل أنّ كل يوم يقضيه في الدير سيكون جميلاً ، مقدساً ، ومفعماً بالسلام ؛ ولكن سرعان ما يمزق هذا الشعور المفعم بالحب والسلام ، دوي انفجار يحطم كل شيء ، فزجاج الدير يتناثر ، واطفال جوقة الكنيسة يهربون خائفين ، وتهرع الراهبات لنجدتهم والتأكد من سلامتهم ، فيخرج (محمود) من الدير ؛ ليرى الطفل المسيحي (فادي) قد صار اشلاء متناثرة ، بلا رأس ولا أرجل ، أما مصير معلمه (ألبير) فقد هاجر إلى خارج الوطن كأغلب المسيحيين الذين جرفهم تيار الهجرة بسبب قساوة الظروف[١٩] . فحينما نتابع توظيف الروائية لهذه الشخصيات نجدها قد وظفتها بصورة فنية تحمل ثيمات معينة ، ولا تخلوا من الرسائل المبطنة التي تريد أن توصلها الكاتبة ، إلى المتلقي ، فهي تمد الجسور المشتركة بينها وبين الآخر ، سواء من الناحية الآيديولوجية ، أو كونهم شركاء في هذا الوطن ، يتقاسمون المأساة في ما بينهم ، وهذا ما جعل مرونة في السرد ، وأعطاه ترابطاً داخليا ، لأنها نجحت في تحريك شخصياتها داخل هذا الفضاء الذي يحمل الطابع المسيحي . أما في روايتها (حلم وردي فاتح اللون) ، فأننا نجد تجليات الشخصية المسيحية أكثر تعقيداً ، فشخصية المسيحي في هذه الرواية ، هي أم لمقاتل يلتحق بالمقاومة العراقية اثناء دخول القوات الأمريكية إلى العراق ، فهذه المرأة المسيحية قد تزوجت من مسلم ، وهنا دخلت الروائية إلى عالم المحظور ، فطبيعة المجتمع المسيحي في العراق يرفض زواج المسيحية من شخص مسلم بصورة قطعية ، ويكون مصير المرأة التي تعشق رجلاً من غير دينها اذا أرادت الزواج منه ؛ هو براءة الأهل منها وقطيعتهم لها ، ويجب عليها أن تنهزم معه ، فتفرض (ميسلون هادي) هنا في هذه الشخصية انموذجاً مغايراً ، في الخواص القومية وحب الوطن في العراق ، تحمله هذه المرأة المسيحية ، فابنها يعد متطرفاً إسلامياً ، بينما هو يعد نفسه مناضلا ، ومقاوماً ضد الاحتلال[٢٠].

المبحث الثاني : الشخصية المسيحية لدى الروائيين المسيحيين العراقيين :

تظهر لنا الشخصية المسيحية عند الروائيين المسيحيين ذات جدلٍ معقدٍ ومتشابكٍ ، ولكن بشكل عام يشترك الروائيون المسيحيون في وجهات النظر بالانتماء المسيحي لوطنهم العراق ، رغم ظروف الهجرة التي يعيشون بها ، وكذلك يشتركون في ما يخص دورهم الذي ينبغي القيام به في المجتمع العراقي، وكذلك في التطلع إلى عراق تعددي ، على الرغم من توجسهم اتجاه الدعوات التي تدعو إلى مزيد من التجانس والاندماج ، ولكن لدى إلقاء نظرة فاحصة فإننا نكتشف الاختلافات الكثيرة بين الكتاب والمثقفين المسلمين من جهة ، والكتاب المسيحيين العراقيين من جهة أخرى . وهذه الاختلافات ليست قليلة ، مثلما سوف يتضح لاحقاً . فبعض الكتاب المسيحيين قد غيروا وجهات نظرهم بمرور الزمن . حيث يتناول الروائيون المسيحيون في كتاباتهم الديناميكيات الداخلية للجماعات المسيحية ، وكذلك العلاقات مع الغالبية من العرب والمسلمين ، وهم يناقشون أيضاً مسائل أخرى مثل (الشتات) والغربة ، والهجرة ، والحنين إلى الوطن ، والهوية الإثنية المسيحية ، وجذور العنف الموجه ضد المسيحيين .

كل الكتاب المسيحيين الذين ناقشنا أعمالهم هنا، أغلبهم يعيشون في المنفى ، وأغلبهم ما زال يعيش هناك . كان هؤلاء الكتاب قد تركوا العراق قبل عام ٢٠٠٣ ، وهناك واحد من الكتاب قد عاد إلى بعد ذلك التاريخ ، وهو : سعدي المالح ، حيث ترأس مركز الدراسات السريانية في عنكاوة قبل وفاته باربيل . كان ذلك المركز يخضع لإدراة حكومة كردستان المحلية ، وذلك ما جعل سعدي المالح مشاركاً للعراقيين من غير المسيحيين في البدء بحوار ، بينما غيره من الكتاب المسيحيين يبدوا أنهم كانوا أقل انشغالا بذلك الشأن . فضلاً عن ذلك ؛ فإنّ سعدي المالح ، هو الكاتب المسيحي الوحيد الذي كان عضواً في الحزب الشيوعي العراقي ، وقد أمضى شطراً من حياته في المنفى بموسكو ، حيث جاء تحوله الأيديولوجي والديني من شيوعي ناشط إلى ناشط

في مجال حقوق المسيحيين في العراق بشكل مؤثر وفعال ، منعكساً على كتاباته ، أما (صومائيل شمعون) فهو الكاتب الآشوري الوحيد الذي يمكن الإشارة اليه في هذا الصدد ، لقد ترك العراق في سنة ١٩٧٩ وهو يعيش الآن في لندن ، ويعمل محرراً لمجلة(بانيبال)الادبية [٢١]، أما الكاتب (سنان انطوان) ، فهو مسيحي كلداني ، ولد في سنة ١٩٦٧ ، وترك العراق إلى نيويورك في عام ١٩٨٨وهو ناشط في كثير من الميادين الأدبية والأكاديمية . والكاتبة (أنعام كجه جي) فهي تشترك مع (سنان انطوان) بأنهما ولدا في بغداد ، بينما (صومائيل شمعون) فقد ولد في قرية آشورية قرب مدينة الحبانية غربي العراق ، وسعدي المالح ولد في بلدة مسيحية أيضاً ؛ هي عنكاوه ، الكاتبان اللذان ولدا في بغداد ، ينتسبان إلى بيئة مشابهة ، بينما الكاتبان الآخران ولدا في مدينتين مسيحيتين منعزلتين إلى حدٍ ما ، حيث كانت اللغة الآرامية مازالت منتشرة فيهما . أما عند العودة إلى موضوعة الشخصية المسيحية في نتاجاتهم الفنية ، فربما نجد (صومائيل شمعون) ، فإننا نجده أكثر اهتماماً بالناحية الاثنية من كل الكتاب الذين نشير اليهم ، وهذا ما يصرح به (جوي) بطل رواية (عراقي في باريس) ، حينما يقول (أنا عراقي ولكني لست عربياً)[٢٢]، وهذه الرواية اقرب إلى السيرة الذاتية ، أغلب الحوادث تقع في الحبانية ، وهي بلدة تسكنها أغلبية آشورية بالقرب من القاعدة الجوية البريطانية سابقاً ، وتقع غرب العراق ، حيث كان الآشوريون يعملون فيها ، تتخلل الرواية أجواء آشورية بحتة؛ فالشخصيات تتلكم الآرامية ، وجوانب من الماضي الآشوري القديم تتكرر باستمرار ، يمكن القول إنّ الرواية ومن خلال شخصياتها ، تلخص عملية البحث عن الهوية ، واعادة صياغتها من جديد ، فبطل الرواية (جوي) وهو طفل آشوري ، يعشق الأفلام السينمائية ، أو بالتحديد الأفلام الأمريكية، وبالرغم من أنه ينشا في كنف أمه المتدينة جدا ، إلا إنّه يصبح علمانياً بالرغم من نشأته في مجتمع آشوري منغلق على نفسه ، إلا إنّه ينظر نظرة مختلفة إلى البيئة المغايرة ، فيتواصل معهم باللغة العربية ، ويمكننا القول إنّ شخصية هذا الطفل حتى هذا الحين ، تمر بعملية تحول إلى الانتماء إلى العراق ،ولكن هذه العملية تنقطع أول مرة عندما يلتقي بـ (قرياقوس) ،وهو رجل كبير في السن ،يعشق السينما أيضاً ،يخبر (قرياقوس) الصغير (جوي) عن مذبحة الآشوريين التي خسر فيها والديه ، وهنا تبدأ عملية التحول في الشخصية لدى (جوي) فهذا الكشف يبدد الفردوس الذي بناه هذا الطفل في مخيلته ، وتنقطع تلك العملية مرة ثانية ، عندما يعود حزب البعث إلى السلطة في عام ١٩٦٨ ، ويدعو إلى تهجير المسيحيين من قرية الحبانية ، ثم يدمر مستوطناتهم ، وضمن ذلك منزل (جوي) ، فيتحطم الوطن العراقي الصغير الذي بناه لنفسه على يد الحكومة العراقية ، فينتقل (جوي) إلى الرمادي ، البلدة العربية القبلية ، التي تعيش في وئام ، حيث يغدو غريباً تماماً ، ما يبرز حقيقة إنه لم يكن عربياً ولا مسلماً .

كانت الحبانية في هذه الرواية مكاناً آشورياً بامتياز ، مع أنها تؤوي أيضاً غيرهم من الأقليات .. إنها تمثل العراق المصغر مثلما ينبغي أن يكون ولكنها تتمزق لاحقاً ، إنها حقاً مكان مشحون بالأسرار التي تتكشف لاحقاً ؛ الآشوريون كانوا يعيشون هناك تحت حماية القوات البريطانية ، بعد أن نجوا من مذابح ١٩٣٣ ، وكانوا يعملون في خدمة الجيش البريطاني حتى نهاية الوجود البريطاني سنة ١٩٥٨ ، ومن خلال السينما ، تكون الحبانية بوابة إلى الأنتقال لعالم أوسع ، ومهرباً من ذكريات مريرة بالنسبة لـ (قرياقوس) يتضح لنا أن الصغير(جوي) كان نتاج لعمليات مختلفة ، واحداث تاريخية متناقضة ، أدت إلى محاولته لتكوين هوية آشورية تتخذ منحناً علمانياً – إثنياً ، تعتمد على التاريخ ، والتجمع العرقي ، واللغة ، ولكنها تعتمد أيضاً على القبول بالتعددية ، فنرى الشخصية المسيحية هنا ، المتمثلة بـ(جوي) ، هي شخصية متحولة ، مرت بتحولات عدّة ، نتيجة الظروف البيئية ، والتاريخية ، والسياسية الي مرت بها ، ففي بادئ الأمر ، قد بنى (جوي) وطنه المصغر بداخله ، إيماناً منه بأنّ العراق هو عراق ، لا يمكن حصره بدين ، أو مذهب ، أو قومية ، ولكن سرعان ما تكشف الظروف أشياءً غير هذا ، فيحاول ، يبحث عن هوية أخرى ؛ هوية عراقية ولكن تحت مسمى آخر ، لأن الواقع قد فرض نفسه عليه ، فلا يمكن أن يكون عراقيا بدون قوميته الآشورية التي تعرضت إلى الظلم والاضطهاد ، فقد عرف لا حقاً ما لاقى أسلافه الآشوريين من مذابح في سميل عام ١٩٣٣ ، وكذلك رأى بأم عينه كيف جرفت الحكومة قريته في الحبانية بعد أن شيدها وطناً في مخيلته ، إذن البحث عن الهوية الضائعة تحت وطأة الظروف القاسية ، هو السمة الغالبة على هذه الشخصية ، ولكنها تبقى شخصية عراقية غير منسلخة عن وطنها العراق .

أما في رواية (في انتظار فرج الله القهار) للروائي سعدي المالح ، والتي يستخدم فيها اسلوب تيار الوعي في السرد ، لم تكن الحبكة الأساسية في الرواية ذات أهمية ، لكن تيار الوعي يتدفق على لسان أحدى الشخصيات ، وهي أحدى الفتيات التي تعزف الكيتار في الولايات المتحدة ، وبعدة مدة وجيزة ، يتدفق تيار

الوعث من شخصية البطل الذي يتذكر أمه وهي تلفظ كلمات الثالوث بالآرامية ، كل ذلك يأخذه نحو محطات متنوعة من تاريخ العراق ، إنه يواجه قائمة طويلة من الضحايا مستمدة من تاريخ العراق ، الحديث . تبدأ القائمة بزيارة (سميل) وهو أسم القرية التي شهدت مذبحة الآشوريين عام ١٩٣٣، ويلتقي بالناجين الذين يصفون المذبحة[٢٣]، وبعدها تنفتح صفحاتٌ من تاريخ العراق ؛ مملوءة بالمذابح والنكبات التي تطال كل الجماعات والاعراق ، حيث يمضي البطل ليلتقي باليهود ، وجنود من الحرب العراقية الإيرانية ، والأكراد والشيعة ، فالكل أصبحوا ضحايا للدمار والمذابح والحروب ؛ ثم يدرك أنهم جميعاً يتحدون في انتظارهم لفرج الله القهار ، وهي اشارة ذكية من الكاتب إلى (السيد المسيح) أو (المهدي) ! فيكون فرج الله ، الوحيد القادر على تغيير الوضع المأساوي للضحايا . في المشهد الافتتاحي تصل الأم إلى الكنيسة لترى ولدها (فرج الله) ، ما تلبث أن تموت في تلك اللحظة ذاتها ، وفي مرحلة لاحقة نرى الضحايا من الأموات الذين نواجههم من حين لآخر يتوقعون جميعاً وصول فرج الله لإنقاذهم . لكنّ السارد يرفض انتظار مثل هكذا مخلّص ويدين سلبية أولئك الذين لا يفعلون شيئاً سوى الانتظار . ربما كان ذلك استعداداً لمحاولة الرجوع إلى العراق والانشغال بدوره الحالي والأكثر إيجابية ، وهنا تظهر الشخصيات المسيحية أكثر تمسكاً بالعراق ، وعدم التمسك بالإثنية ، حيث يستعرض الكاتب جميع المآسي التي مرت على أطياف العراق كافة ، وعند طريق تقنية تيار الوعي التي تسرد من خلال الشخصيات المسيحية ، وهنا لم يكن دور الشخصيات مستتراً وراء وجهة نظر معينة ، أو منحازاً إلى فئة أو طائفة دون أخرى .

أما إذا انتقلنا إلى الروائية (أنعام كجه جي) فإنّ شخصياتها المسيحية في روايتها (سواقي القلوب) تحاول إعادة تشكيل الوضع العراقي المتعدد الإثنيات في المنفى في باريس بالتحديد والذي تدور فيه احداث الرواية ، من الجدير بالذكر ، إنّ المجتمع العراقي المصغر الذي يتألف من الأصدقاء ، يتمحور بالأساس حول شخصية (كاشان) ، وهي امرأة مسيحية أرمنية ، كانت قد نجت من مذابح عام ١٩١٥ ونشأت ضمن عائلة مسلمة في الموصل ، تشعر (كاشان) بأنّها امرأة عراقية الأصول ، وتخلق وطناً بديلاً لها ، ولرفاقها الآخرين من العراقيين المغتربين ، ليست الشخصية المسيحية هنا مجرد جزء من جماعة قومية تعيش في المنفى ؛ بل العامل المحفز على نشوء تلك الجماعة ، والذي يحافظ على تقاليدها، وذكرياتها. واذا دققنا النظر على شخصية (كاشان) فإنّنا نراها تبدو أكثر عراقيةً من كونها مسيحية ، أو أرمنية ، ولكن بما أنها بالفعل مسيحية وأرمنية في الوقت ذاته ، فهذا يضيف إليها بعداً آخر إلى عراقيتها[٢٤] ، وهنا تظهر لنا الشخصية المسيحية ؛ شخصية محورية ، يتمحور حولها جميع العراقيين في المنفى ، هذا من جانب ، ومن جانبٍ آخر ، انها تذكر العراقيين المغتربين بعراقيتهم ، وذكرياتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، التي تحفزهم دائما على التمسك بها ، وهذا ما اعطانا شخصية ايجابية رسمت لنا صورة من الحب والتسامح رغم كونها نجت من مأساة مذبحة الأرمن ، والتي راح أهل (كاشان) ضحية لها بصورة مأساوية يخجل منها وجه التاريخ .

وفي روايتها الثانية (الحفيدة الأمريكية) ، تتجه (انعام كجه جي) من الخارج نحو الداخل ، لتغوص في أعماق المجتمع المسيحي ، وتركز على موضوعين مثيرين للاهتمام وهما : موضوع المنفى والارتباط مع الوطن ، بطلة الرواية (زينة) وهي شابة عراقية مسيحية ، هاجرت مع أهلها إلى الولايات المتحدة ، وتعاني من أزمةٍ في الهوية ، والانتماء ، تقرر الفتاة أن تعمل مترجمة للجيش الامريكي في العراق ، كانت تريد هذا العمل من أجل مساعدة العراقيين ، ترى (زينة) نفسها في العراق ، فكانت حينما ترى بغداد في التلفاز وهي تحترق تحت وطأة الغارات الامريكية في حربها الأخيرة تقول : (كنت أنكمش وأنا اشاهد بغداد تقصف وترتفع فيها اعمدة الدخان بعد الغارات الامريكية . كأنني أرى نفسي وأنا أحرق شعري بولاعة سجائر أمي ، أو أوخز جلدي بمقص أظافري ، أو أصفع خدى الأيسر بكفي اليمنى . لماذا أعجز عن الجلوس في مقعدي لخمس دقائق ؟ أقول للأخرى التي هي أنا إنّ هنالك أطفالاً يفزعون وأبرياء يموتون بلا ذنب في بغداد)[٢٥]، فهذه الشخصية المسيحية تشعر بالاحتراق لاحتراق بلدها رغم أنها غادرته وهي طفلة صغيرة، وتريد العودة له ، لمساعدة أهله ، وكذلك لرؤية جدتها (رحمة) التي تحبها كثيراً ، ولكنّ العجوز (رحمة) تشعر بالخيبة والعار ، حينما تعرف بأنّ حفيدتها ؛ تعمل كمترجمة مع القوات الامريكية ، (فهمت لا تكملي . فأنتِ تشتغلين مع الامريكان ، مو – هالشكل ؟ قاطعتني بفزع أم شرقية تشك في ابنتها البكر حامل وستلوث شرف العائلة . وكان في نبرة صوتها خسفة)[٢٦]، ومن ثم تتعرف على مرأة عجوز شيعية ، تقوم بخدمة جدتها ، ومن ثم تقع في حب (مهيمن) ابن هذه المرأة والذي ينتمي إلى (جيش المهدي) المقاوم للقوات الأمريكية ، لتكتشف في ما بعد أنّه أخوها في الرضاعة . تظهر لنا في الرواية ، إنّ الشخصيات المسيحية ، شخصيات متشابكة ، ومتعددة المحاور ، فهم في الخارج

ولكن عينهم على داخل العراق، وهذا ما صرّحت به (زينة) حينما تصف حالها، وهي تنظر إلى بغداد وهي تحترق على شاشة التلفاز ، بنيران البلد الذي تعيش فيه هي ، أما شخصية العجوز (رحمة) جدة البطلة ، فإنّها تشعر بالعار من حفيدتها التي تراها بعينها خائنة لبلدها ، وهذا ما يربط مسيحي العراق ارتباطاً وثيقاً بوطنهم ، مشاركين اغلبية العراقيين بحبهم لبلدهم ، ورفضهم لأي نوع من العمالة مهما كانت المسميات . كذلك استخدمت الكاتبة بالتفاتةٍ ذكية منها الرمزية في الشخصيات ، حينما وقعت (زينة) بحب (مهيمن) الشيعي ، والذي هو اخٌ لها في الرضاعة ، وهذا ما يؤكد العلاقة المتينة بين المسيحيين ، وغير المسيحيين في العراق ، وهذا ما تؤكده ثانيا بعلاقة المرأة (طاووس) مع جدتها ، فهي المسؤولة عن بيتها وطبخها ، وكل شيء ، فهم اشبه بعائلة واحدة . وهنا توظف الكتابة المسيحية ، الشخصيات غير المسيحية بتحريك عملية السرد ، لأن الشخصيات المحورية في الرواية هي شخصيات مسيحية ، هذا ما اعطى إلى وتيرة السرد تماسكاً أكثر ، وترابطاً أقوى ، خصوصاً وأنّ الشخصيات لم تكن مقحمة اقحاماً قسرياً من أجل أهداف أخرى ، لأنها عكست حقيقة المجتمع العراق ، باعتبار الرواية مرآة للمجتمع تعكس صورته الحقيقة ، وكلما كان الرواية يوظف الحقائق بصورة عفوية ، كلما كانّ نتاجه الابداعي اكثر مقبولية لدى المتلقيين . فالمسيحيون في روايتها عراقيون وهم يعيشون في العراق ، وكذلك وهم يعيشون خارج العراق فهم عراقيون أيضاً . ففي روايات (انعام كججي) هذه ؛ لم يظهر لنا أي عنفٍ يذكر اتجاه المسيحيين ، بالرغم من أن احداثها تقع بعد عام ٢٠٠٣ .

أما التحول اللافت للاهتمام ، فهو يتمثل في روايتي (سنان انطوان) وهما رواية (إعجام) ، و(يا مريم) ، ففي رواية (إعجام) ، فإننا نرى البطل والسارد في الوقت نفسه ، وهو طالب جامعي مسيحي اسمه (فرات) – وهو اسم يرمز إلى حب الوطن – من أصل كلداني ، يعيش في العراق بزمن حكم البعث في نهاية الثمانينات ، وهو يتيم ، تتولى تربيته جدته المتدينة جدا ، والتي تواظب على الذهاب إلى كنيسة (القلب الاقدس) كل يوم وفي الآحاد واعياد القديسيين تذهب إلى كنيسة أم الاحزان في عقد النصارى[٢٧] . النص يزخر بتعبيرات أخرى تدل على حب الوطن ، الذي يستمر في فرض وجوده ، والذي يعدّ تحدياً لحكم البعث ، برغم كل اشكال الاضطهاد ، يجسد الشاب المسيحي (فرات) الذي يكتب النص في منتصف الرواية ، صورة لحب الوطن ، فهو يعشق نهر دجلة ، ويتأمل في كل قطرة من مياهه[٢٨]، وهو معجب بالشاعر الوطني العراقي الجواهري[٢٩]، كذلك يشجع فريق كرة القدم البغدادي (الزوراء)[٣٠]، ويستعمل أحياناً الحوار باللهجة العامية والمسيحية تحديداً . ويمكننا عدّ رواية (إعجام) رواية سياسية ، تحاول اظهار مقاومة فاشلة من شاب مسيحي لحكم البعث ، تنتهي باعتقالها ، ويعذب في زنازين المعتقلات . فيظهر لنا الكاتب ؛ الشخصية المسيحية مشتركة برفضها للسلطة الدكتاتورية في العراق ، وتشترك مع غيرها من الشخصيات غير المسيحية الرافضة للسلطة وموجهة المصير نفسه ، كذلك تظهر لنا الشخصية المسيحية ، شخصية وطنية ومثقفة ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل ما هو جميل بالوطن ، كحب نهر دجلة ، وحب الشخصيات الوطنية كالجواهري ، ومشاركة القاعدة الشعبية في بغداد ، بتشجيع نادي (الزوراء) وغيرها من الامور الكثير ، التي تؤكد عراقية الشخصية المسيحية في هذه الرواية ، وكذلك لا نجد في هذه الرواية ، ازمة لضياع الهوية . أما حياة جدته التي تعيش دائما بخوف على حفيدها ، وكذلك نقاشات عدةّ تدور بينهما ، حول شتى القضايا ، فهي (كلدانية) ومعتدة بأصلها الكلداني ،كما يصرح بذلك (وتغضب حين أحاول إقناعها بأننا ، ثقافياً ، عرب ، أو معرّبون ، على الأقل ، ولسنا قومية منفصلة كالآثوريين ، أو الأرمن . وبأنّ كل ما يبقى من الكلدانية هو اللغة التي تستعمل في القداس ، أو التي يستعملها الجيل السابق ، والتي تتكلّمها هي مع أقربائنا من جيلها أو معي حين تغضب)[٣١] ، كانت شخصية الجدة في الرواية ، هي شخصية هامشية ، وكان استخدمها الروائي لتأكيد الثيمة المسيحية ،من كنائس واعياد ، وحوارات تخص وجهة النظر المسيحية . لكن البطل كان رافضاً لأفكارها .

وفي روايته (يا مريم) ، التي تقع احداثها خلال حقبة ؛ ما بعد ٢٠٠٣ في العراق ، مع انتشار العنف ضد المسيحيين ، والذي نلمسه في جوهر الرواية ، حيث يتوجه الروائي إلى داخل العراق بشكل مركز ، ويسلط الضوء على قضايا شائكة ، ربما هي نابعة من وجهة نظر اغلب المسيحيين العراقيين بداخل العراق بالفعل . ونلمس لدى الكاتب وجهة نظر راديكالية ، تتجلى المسألة الأساسية فيها ، فيما اذا كان المجتمع العراقي العربي المسلم يتقبل المسيحيين العراقيين أو لا ؟ فأحداث هذه الرواية، ليست تأويلاً عن الماضي ، ولكنها تساؤلات نابعة من الواقع الذي يعيشه المسيحيون في العراق والتطلع نحو مستقبلهم في هذا البلد . تفتح الرواية احداثها بعبارة (إنت عَيّش بالماضي عمّو!)[٣٢] قالتها (مها) بعصبية وهي تلوم (يوسف) ، في واقع الأمر كان يوسف يعيش في الماضي من خلال نظرة رومانسية عجيبة ، يستذكر من خلالها كيف كانت الأيام الخوالي ، ولا سيما

فيما يتصل بدول المسيحي في تاريخ العراق ، ضمن هذا التأويل ينظر إلى الحاضر فيجده مشوهاً ، ويعد هذا كله انحرافاً ، ذلك الانحراف يمكن أن يتلاشى بمرور الزمن كونه شيئاً دخيلاً على المجتمع العراقي ،بنما تعيش (مها) حاضرها ، وتجابه الصعوبات لكونها مسيحية (وأنها امرأة مسيحية بالخصوص) في حقبة ما بعد ٢٠٠٣ . من الناحية الرمزية كانت قد فقدت جنينها في هجوم ارهابي ، ما حرمها من أي أمل في المستقبل ، كانت تعاني من الاحباط ، وتحاول أن تؤكد جوهر مسيحيتها من خلال وضع الصليب على صدرها ، في خضم انهيارها العقلي ، يتطور ارتباط عميق مع العذراء مريم التي كانت أيضاً قد فقدت طفلها ، ومن ثم يجتمع الاثنان في كنيسة (سيدة النجاة) في بغداد أثناء المذبحة التي حدثت عام ٢٠١٠ ، فيقتل (يوسف) بينما تنجو (مها) ، فتظهر لنا شخصية (يوسف) هي شخصية وطنية ، متمسكة بوطنها وهويتها الوطنية ، فهو كان يعمل مديراً عاماً لقسم النخيل في وزارة الزراعة ، وهو خبير معروف في مجال التمور ، في الماضي كان يحب امرأة مسلمة تزوجت لاحقاً من رجل مسلم ، ومنذ ذلك الحين بقي عازفاً عن الزواج ، وعلى الرغم من إنّه عرض عليه أن يعيش مع عائلة مسيحية في خارج العراق ، لكنه ببساطه لا يستطيع العيش خارج العراق ، (يوسف) رجل كبير في السن ، أعزب ولا أولاد له ، وذلك يعني أنه بغض النظر عن أي شيء يحصل له ، فوجوده في العراق مسألة وقتية ، إنّه شخص رومانسي ، ويخبرنا الروائي بقصة حبه الفاشلة ، وهذا يتضمن أنّه كان يغض الطرف بمحض إرادته عن أي شيء لا ينسجم مع نظرته الرومانسية تلك . في واقع الأمر أنّ قصة الحب تلك تدعم رؤية (مها) بشكل أو بآخر ، رغم أنّ (مها) أكثر واقعية ، ولكنها كامرأة ، كانت لديها مؤثرات أخرى ، غير أنّها تجسد رؤية معدّلة ، فهي لم تكن تؤيد الإثنية المنعزلة للكلدان كما رأينها في شخصية الجدة بروايته (إعجام) ، وهي ليست امرأة تقليدية بأفكارها مثل الجدة ، كانت تحس بالإحباط من جهودها العقيمة التي تسعى بها لتنال القبول وتحقيق الذات . هناك دلالات رمزية خطيرة يمررها الروائي عبر رسائله المشفرة في مقتل (يوسف) الذي لا ذرية له ، ونجاة (مها) ومن ثم هجرتها إلى الخارج ، فهو يعبر عن واقع المسيحيين المهدد بالانقراض في العراق ، والهجرة إلى الخارج ! وهو بهذا تناول موضع الهجرة غير المسبوقة من قبل المسيحيين إلى خارج العراق ، وأزمة الضياع والبحث عن الهوية ، التي يعانون من ايجادها ، وتحقيق ذاتهم بها ، كذلك التناقض الذي يربطهم بتاريخهم وجذورهم الممتدة عبر آلاف السنين في تاريخ العراق ، وهذا ما يرمز إليه الكاتب من خلال ذكره الكنائس القديمة ككنيسة (أم الأحزان) في عقد النصارى ، وكذلك اصولهم الكلدانية الموغلة بعيدا في التاريخ . ....لا تستبعد الرواية الرموز المسيحية ؛ كالصليب مثلاً ، أو الطقوس (القداس ، واقتباسات من الصلوات) فحينما يستذكر (يوسف) أيام تناوله الأول للقربان ، وهو في سن العاشرة بكنيسة (أم الأحزان) في عقد النصارى ، يذكر شيئاً من الصلوات والتراتيل في اللغة الآرامية التي مازالت مقاطها في رأسه : ("قدّيشا آلاها ، قدّيشا حِلثانا ، قدّيشا لا مايوثا إثراحِم علين . شوحا لاوا ، ولورا ، ولروحَد قُدْشا ، دعالمين آمين ، مِن عالّم وعَدْما لعالم ، آمين وآمين . لا خومارا دخولاً مَوْثيلا ، لاخ إيشوع مشيحا مشَبْحيلا ". . . واستمع إلى موعظة البطريك الذي أشرف على الطقوس وناولهم الذبيحة الإلهية بيده ..)[٣٣]، وهذا الاستذكار من قبل (يوسف) إلى كل هذه الطقوس التي مر بها في طفولته ، هي محاولة ربط المسيحيين بتاريخهم وذكرياتهم الجميلة التي عاشوها في وطنٍ كان يعيش فيه الجميع بسلام آمنين .

ونحن نختم بحثنا نجد أن الشخصية المسيحية لدى الكتاب المسيحيين العراقيين ، جاءت على صور عدّة ، فتارة شخصية تحاول خلق شخصية عراقي اثنية تنتمي إلى قومية معينة كالقومية الآشورية في رواية (صومائيل شمعون) ، وتارة شخصية تحاول ان تحاكي مأساة العراق جميعا وتشاركهم باستطراد التاريخ الدمي له ، كما هو الحال في رواية سعدي المالح (في انتظار فرج الله القهار) ، وتارة أخرى تطل تكون هذه الشخصيات عراقاً مصغرا ، وتربطهم بذكرياتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، كشخصية (كاشان) في رواية (سواقي القلوب) للروائية (أنعام كجه جي) ، وكذلك تطل علينا الشخصيات المسيحية من خارج العراق إلى داخله كشخصية (زينة) في رواية (الحفيدة الأمريكة) للروائية ذاتها ، وفي روايات (سنان انطوان) فتظهر لنا الشخصيات المسيحية هي شخصيات وطنية ، احدى تشارك ابناء الوطن في مقاومة الدكتاتورية كشخصية (فرات) في روايته (إعجام) ، وشخصيات متناقضة ، واحدة تتشبث في تراب الوطن والأخرى تحاول الهجرة وتحقيق الذات هناك وايجاد الهوية الضائعة ، كشخصية (يوسف) ، و(مها) ، في روايته (يا مريم) .

الخاتمة :

لم تكن رحلة البحث عن الشخصية المسيحية في الرواية العراقية الصادرة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٥ بالأمر اليسير ، وذلك لغزارة الروايات العراقية الصادرة في هذه المدّة ، هذا من جانب ، وبحثنا عن الروايات التي تناولت الشخصية المسيحية بصورة فنية لائقة ، ترتقي إلى مصاف العمل الابداعي من جانبٍ آخر .

لقد بيّنا في هذا البحث أمورٍ عدة توصلنا إليها تمثلت بجملةٍ من النقاط هي :

أولا . أنّ هذه الشخصيات ؛ هي شخصيات روائية منتمية إلى الديانة المسيحية ، والمجتمع العراقي ، وهي بهذا تجمع بين ما هو واقعي ، ومتخيل .

ثانيا . قبل الولوج في البحث ، أعطينا نبذة مختصر عن أهم القوميات المسيحية التي تعيش في العراق وكانت : القومية الآشورية ، والكلدانية ، والسريانية ، وموطن هذه القوميات الأصلي هو العراق ، حيث أنها موغلة في القدم منذ الآلف السنين . وتوجد قومية رابعة جاءت بها الظروف إلى العراق ومن ثم انصهرت في المجتمع العراق ، وذابت به واكتسبت هويته ، وهي القومية (الأرمينة) ، وذلك لأن الروائيون قد تناولوا موضوعة القوميات المسيحية في رواياتهم .

ثالثا. من خلال الرواية ، وتسليطها الضوء على المجتمع المسيحي في العراق ، وجدنا نّ أغلب مسيحي العراق ؛ يتكلمون اللغة الآرامية / السريانية ، وقد استخدم الكتاب غير المسيحيين ، هذه اللغة المغايرة أيضاً ، ووظفوها في رواياتهم ، كأحمد سعداوي ، وعلي بدر ، فضلاً عن استخدام الكتّاب المسيحيين لهذه اللغة، لأنها مرتبطة بطقوسهم الدينية ، كالقداس والتناول ، وغيرها من الطقوس .

رابعا. أنقسم البحث على مبحثين هما :

١ . الشخصية المسيحية في الرواية العراقية لدى الروائيين غير المسيحيين ، فوجدنا الشخصية المسيحية ، شخصية محورية في رواياتهم ، واحياناً شخصيات مركبة ، أو معقدة ، ترمز احياناً إلى العراق ككل ، وترمز إلى التشظي والضياع ، والبحث عن الهوية الضائعة في أحيان أخرى . منها ما كانت منغلقة في مجتمع إثني متعصب قومياً ، ودينيّاً . وكذلك وجدنا الشخصية المسيحية في بعض الروايات ؛ ترمز إلى الجمال والفن الموجود في العراق ، وكذلك ترمز إلى مشاركة العراقيين ككل في خضم المأساة نفسها ، تحت ظل وطأة الظروف الموضوعية المحيطة به .

٢ ٠الشخصية المسيحية لدى الروائيين المسيحيين العراقيين ، وكانت الشخصية لديهم ذات أبعاد ودلالات مختلفة ، من ناحية الرمز والمحتوى والمضمون ، فتارة نجد الشخصية المسيحية لديهم ، شخصية تصاب بالإحباط بعد أنّ تعيش حب الوطن بداخلها ، لكن الواقع الديني أو السياسي يهدم هذه الاحلام ولذى تبحث عن هوية عراقية مستترة وراء قومية معينة كالآشورية أو الكلدانية . واحيانا نجدها شخصية تجمع العراق بداخلها في بلاد المهجر ، تحاول الحفاظ على هويتها العراقية ، وعاداتها وتقاليدها . وكذلك وجدناها شخصية مهاجرة تتطلع إلى العراق من الخارج ، وتحاول الولوج إليه والمساهمة في اصلاح ما خربته الحروب والسياسات الخاطئة ، والحكومات المتعاقبة عليه .

الهوامش :

١ _ المسيحيون في العراق التاريخ الشامل والتحديات الراهنة ، سعد سلوم ، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية ، بغداد-بيروت،٢٠١٤، ص١٤٤.

٢- المصدر نفسه ،١٤٧.

٣- الآراميون ، دوبنت سومر ، دار الوراق للنشر المحدود ،ط١، ٢٠٠٧ ،ص١٠-١١.

٤- غائب طعمة فرمان حركة المجتمع وتحولات النص ، خالد المصري ، دار المدى للثقافة والنشر ، ط١ ، ١٩٩٧، ص١٤٠.

٥ - ينظر : أركان الرواية ، إ. م . فوستر ، ت: موسى عاصي ،جروس برس ، طرابلس ،لبنان ،ط١ ، ١٩٩٤ ، ص٣٧-٣٨ .

٦ فرانكشتاين في بغداد ، احمد سعداوي ، منشورات الجمل ،بيروت-بغداد ٢٠١٣،ص١٢.

٧ فرانكشتاين في بغداد ، ص٧٤.

٨ ينظر : من تراثنا الشعبي في قرى نينوى ، الكتب الأول ، بنيامين حداد ، نوئيل قيابلو ، جميل يلدا حيدو ، القس قرياقوس حنا ، من منشورات الجمعية الثقافية للناطقين بالسريانية ، طبع بمطبعة شركة التايمس للطبع والنشر والمساهمة ، شارع الرشيد-بغداد ، ٢٥ــــ٤-١٩٨٢، ص٢٢٠ .

٩ فرانكشتاين في بغداد ، ص٧٠-٧١.

١٠ كونكثا ، في الأصل كولكثا وحصل ابدال في حرف اللام والراء ، وتعني في اللغة السريانية : غطاء الرأس . ينظر : زهريدا / قاموس عربي-سرياني ، تأليف الأب : شليمون أيشو خوشابا ، والأب عمانوئيل بيستو يوخنا ، طبع في مطبعة هاوار /دهوك ،٢٠٠٠م ، ص٧٧١.

١١ فرانكشتاين في بغداد ، ص٦٨.

* قام بترجمة هذه النصوص السريانية جميعا الأستاذة : بان إنويا يونان .

١٢- الطريق إلى تل المطران ، علي بدر ، بيروت ، رياض الريس ، ٢٠٠٥ ، ص٦٢-٦٣.
١٣- المصدر نفسه ، ص٧٥.
١٤ - المصدر نفسه ، ص٧٨.
١٥ - الطريق إلى تل المطران ، ص٨٨ .
١٦ - المصدر نفسه ، ص١٣٨ .
١٧ - شاي العروس ، ميسلون هادي ، دار الشرق عمان ، ط١ ، ٢٠١٠ ، ص١٢٤-١٢٥ .
١٨ - شاي العروس ، ص١٢١-١٢٢ .
١٩ - شاي العروس ، ص١٢٤- ١٢٥ .
٢٠ - حلم وردي فاتح اللون ، ميسلون هادي ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص١٢- ٢٨.
٢١ - عراقي في باريس ، صومائيل شمعون ، كولون ، دار الجمل ، ٢٠٠٦ ، ط٢ ، ص٤.
٢٢ - عراقي في باريس ، ص١٤٢.
٢٣ - في انتظار فرج الله القهار ، سعدي المالح ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ص٧٨-٨٤.
٢٤ - سواقي القلوب ، انعام كجه جي ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
٢٥ - الحفيدة الامريكية ، أنعام كجه جي ، دار الجديد ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٩ ، ص٢٣.
٢٦ - الحفيدة الامريكية ، ص٧١ .
٢٧ - إعجام ، سنان انطوان ، منشورات الجمل ، بيروت،ط١، ٢٠١٣،ص١٠٢ .
٢٨ - إعجام ، ص٩٤ .
٢٩ - المصدر نفسه ، ص٨٥-٨٨ .
٣٠ -المصدر نفسه ، ص٥٠ .
٣١ - إعجام ، ص٧٣ .
٣٢ - يا مريم ، سنان انطوان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠١٤ ، ٢٠١٤ ، ص٩ .
٣٣ - يا مريم ، ص٤١ .

المصادر والمراجع

١-الاراميون ، دوبنت سومر ، دار الوراق للنشر المحدود ، ط١ ، ٢٠٠٧ .
٢-أركان الرواية ، إ . م . فوستر ، ت: موسى جردس برس ، طرابلس ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٤.
٣-إعجام ، سنان انطوان ، منشورات الجمل ، بيروت ، ط١، ٢٠١٣ .
٤-الحفيدة الأمريكية ، أنعام كجه جي ، دار الجيد ، ط٢ ، ٢٠٠٩ .
٥-حلم وردي فاتح اللون ، ميسلون هادي ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٩ .
٦-زهريدا ، قاموس عربي – سرياني ، تأليف : الأب شليمون أيشو خوشابا ، والأب عمانوئيل بيستو يوحنا ، طبع في مطبعة هاورا/ دهوك ، ٢٠٠٠م .
٧-سواقي القلوب ، أنعام كجه جي ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
٨-شاي العروس ، ميسلون هادي ، المؤسسة العربية ، ٢٠١٠ .
٩-الطريق إلى تل المطران ، علي بدر ، بيروت ، رياض الريس ، ٢٠٠٥ .
١٠-عراقي في باريس ، صومائيل شمعون ، كولون ، دار لجمل ، ط٢ ، ٢٠٠٦ .
١١-غائب طعم فرمان حركة النص وتحولات المجتمع ، خالد المصري ، دار المدى للثقافة والنشر ، ط١ ، ١٩٩٧ .
١٢- فرانكشتاين في بغداد ، أحمد سعداوي ، منشورات الجمل ، بيروت – بغداد ، ٢٠١٣ .
١٣- في انتظار فرج الله القهار ، سعدي المالح ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٦ .
١٤- المسيحيون في العراق التاريخ الشامل والتحديات الراهنة ، سعد سلوم ، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية ، بغداد – بيروت ، ٢٠١٤ .
١٥- من تراثنا الشعبي في قرى نينوى ، الكتاب الأول ، بنيامين حداد ، نوئيل قيايلو ، جميل يلدا حيدو ، القس قرياقوس حنا . من منشورات الجمعية الثقافية للناطقين بالسريانية ، طبع بمطبعة شركة التايمس للطبع والنشر والمساهمة ، شارع الرشيد – بغداد ، ١٩٨٢ .
١٦- يا مريم ، سنان انطوان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠١٤ .